هاملت . . فى المسرح التجارى
وتلك هى المشكلة

إن تراث « **الدراما الشيكسبيرية** » برغم ما بلغته الدراسة من تعدد وتنوع ، ما زال منفصلا عن وجداننا الحاضر ، وما زلنا محرومين من أن نعيشه ونعايشه ونتحد به فى حركتنا المسرحية ، فهو جزء فحسب من مناهج الدراسة المعهدية أو الأكاديمية ، دون أن يكون وقوداً حيًّا فى معركتنا الفنية الراهنة ، من أجل « **تأصيل** » الدراما فى أرض خلت من كل سابقة لهذا الفن المجيد .

ومن أجل « **تعصيرها** » كذلك ، وعياً ببنابيعها العميقة ، وإحاطة بتراثها العريق ، واستمراراً بها فى فننا الحاضرة ، على ضوء خبراتنا الإنسانية والوطنية الجديدة .

وما أكثر المحاولات التى بذلت عن سوء فهم أو عن سوء نية أو عنهما معاً ، لكى تحول بيننا وبين هذا التراث ، إما بتشكيكنا فى قدرتنا على تمثله واستيعابه وطرحه على جمهورنا العريض ، أو بحرماننا من ثمرة الجهود التى تبذل لتطويره وتعصيره ، والنظر إليه من أكثر من زاوية ، وعلى أكثر من مستوى .

(فالمسرحيات الشيكسبيرية) لم تعد أسيرة جمهور بعينه ، هو جمهور المثقفين ، بل تحررت من هذا الأسر لتنطلق على شاشات السينما ، وعدسات التليفزيون ،

وخيوط فن العرائس ، فضلا عن فنون الأوبرا والباليه ، لتنطلق عبر هذا كله إلى المساحات العريضة من الجمهور العام . انطلاقاً من أن « **شيكسبير** » ليس شاعر عصره ، بل هو شاعر لكل العصور ، وليس مؤلفاً له جمهوره ، بل هو مؤلف لكل الجمهور .

وهذه الفرقة . . « **فرقة استوديو الفن** » إذ تقدم على هذه المبادرة الشجاعة ، بتقديم رائعة **شيكسبير** . . « **هاملت** . . » فوق مسرح كثيراً ما وصفناه بالمسرح التجارى . والجمهور طالما قلنا عنه إنه جمهور الضحك والإضحاك ، أو على الأكثر جمهور (**الإمتاع والمؤانسة**) إنما تخطو بهذا المسرح وبهذا الجمهور معاً خطوة فسيحة إلى الأمام . وهى تقيم الدليل على أن فننا المسرحى لا يخلو من الأصالة ، وأن جمهور مسرحنا لا يعدم الحس الفنى الرفيع .

وكم هو رائع أن يجىء هذا كله ، فى هذه المرحلة بالذات من تطورنا المعركى ، أعنى مرحلة الخروج من معركة التحرير دخولا فى معركة التنوير ، فهناك على الضفة الأخرى من القناة تنتظرنا معركة جديدة هى معركة الحضارة ، وتحد جديد لا خيار لنا فى مواجهته ، فإما أن نكون أو لا نكون كما قالها « **هاملت** » ! !

وليس أقدر من الفن على قبول التحدى والاستجابة له ، لأن الفن هو ضمير الأمة ، أو هو قلب النسر النابض ، إذا كان أحد جناحيه الخفاقين هو العلم ، والجناح الآخر هو الإيمان .

وتلك كانت فى الماضى ولا تزال فى الحاضر هى غاية الفن ، غايته كما يقول « **شيكسبير** » على لسان أميره « **هاملت** » ، أن يقيم المرآة أمام الطبيعة ، لكى تعكس للفضيلة صورتها ، وللرذيلة وجهها ، ولجسد العصر والمجتمع شكله وأثره .

وبحسه الفنى الحاد ، ونبضه المسرحى الحى يستطيع « **استوديو الفن** » أن يلقى

بكلمته فى هذه المسرحية ، أو من خلال تقديمه لهذه المسرحية ، يستطيع باختصار أن يقول نحن قادرون على «**هاملت**» ، قادرون على تمثله وتمثيله ، على تقديمه من خلال خبراتنا الفنية الأصيلة غير المستوردة ، قادرون على أن نتحدى به أنفسنا ، ونتحدى به كل محاولات التشكيك فى فننا المسرحى ، وفى جمهور هذا المسرح .

وهى فى تقديرى كلمة واعية ومسئولة ، واعية بظروف المعركة الحضارية التى تنتظرنا على الأبواب ، ومسئولة عن دور الفن تجاه هذه الظروف ، لأن القضية فى صميمها هى قضية تصحيح مسارنا الفنى ، ورد اعتبارنا المسرحى ، قضية (أن نكون أو لا نكون) ، كما قال « هاملت » . وتلك هى المشكلة .

وأن يقدم هذا المسرح . . وهذا المسرح بالذات ، الذى كان يمكنه أن ينتعذب السقوط فى القمة ، قمة النجاح الجماهيرى ، أن يقدم رائعة « **سيكسبير** » « **هاملت** » ، (وهاملت) بالذات ، فتلك هى المعادلة الصعبة . . لأن « **هاملت** » دون مسرحيات « **شيكسبير** » كلها ، هى المسرحية التى ينبغى — كما يقول المخرج الشهير « **ستانسلافسكى** » — أن يختتم بها كل ممثل حياته الفنية ، فهى أصعب المسرحيات فى الفن المسرحى على الإطلاق . . وهذا صحيح ، فإذا كان النقاد قد أجمعوا على أن أعظم مسرحيات سيكسبير السبع والثلاثين ، أربع مسرحيات هى : « هاملت ، ماكبث ، الملك لير ، عطيل » وكلها من التراجيديات ، فقد أجمعوا كذلك على أن أعظم هذه التراجيديات الأربع هى . . . (هاملت) .

فما هى حكاية « **هاملت** » هذا ؟

حكاية بسيطة ، وبمقدار ما فيها من بساطة فيها من العمق ، فتى قتل عمه أباه وتزوج من أمه ، فانتقم الفتى لأبيه ، فما اللغز فى ذلك ؟

لا شىء . . **وكل شىء** . . .

اللغز فى شخصية « **هاملت** » نفسه ، ذلك الأمير المثقف الذى يخاطب الأشباح ، فلا ندرى إن كان يراها حقًّا ، أم هى من وهم الخيال ، والذى يشحذ إرادته للقيام بما أملاه عليه ضميره ، ولكنه يعدل عن الفعل لأتفه الأسباب ، والذى تثقل عليه قيود الحكمة فيخلعها عن رأسه لينعم بطلاقة الجنون ، والذى يدعى الجنون فلا ندرى أين ينتهى الادعاء وأين يبدأ الجنون .

والذى يحب الحب ، ولكنه يشك فى إخلاص المحبين ، فيحرق حبه « **لأوفيليا** » بحطب الشك اليابس ! (إذ الحب مجنون صادق الجنون ، فأنت تعملين ما تشائين ، وهو لا يسىء الظنون) .

والذى يحب أمه حقًّا ، ولكننا لا ندرى من سلوكاته وانفعالاته إن كان يحبها حبًّا سويًّا نبيلا ، أم هو ذلك الحب الخفى الآثم الذى يصفونه (بعقدة أوديب) ، والذى يحب وطنه كما يحب أبناء وطنه ، ولكنه يخشى أن يرموه بالجنون ، فيقول على لسان (حفار القبور) : (إن أحداً فى إنجلترا لن يفطن إلى جنونه . لأنهم هناك كلهم مجانين) .

فإذا أضفنا إلى ذلك . . شكله الخارجى . . فسوداويته ومظهره الشاحب ، وقوامه النحيل ، ورداؤه المخملى الأسود ، والريشة على قبعته ، وأناقته الرائعة . . وشاعريته فى الحديث ، والشعور الدائم بالتفوق على الآخرين ، إلى جانب التسلى الدائم بإذلال الذات كل ذلك يحظى بإعجابنا ، وكل ذلك يشدنا إليه حقًّا ، إنه لمن دواعى الفخر لكل إنسان كما يقول « الدكتور لويس عوض » ، أن تلقبه « **بهاملت** » .

إن كلمات « **هاملت** » الأخيرة رائعة . فهو يهدأ ويأمر « **هوراشيو** » بالحياة ، ويعطى صوته لصالح « **فورتنبراس** » الحاكم الشاب الجديد ، ولكن « هاملت »

لا ينظر إلى الأمام ، فهو يقول « **الباق . . صمت** » ، وبالفعل فإنه يصمت إلى الأبد ، ومع ذلك فهو كل منا « **هاملت** » بصورة أو بأخرى .

والذى يعطى « **هاملت** » بعد ذلك قيمة أكبر ، ليس علاقته بالقارئ أو بالمتفرج ، وإنما علاقته « بشيكسبير » نفسه ، فهو شخصية « **هاملت** » دلالات كثيرة على « **شيكسبير** » بل لم يضع « **شيكسبير** » على لسان أحد من أبطاله ، كما يقول أكثر النقاد ومن بينهم أستاذنا « **العقاد** » ، بمقدار ما وضع من كلامه على لسان « **هاملت** » . . فشكوى « **هاملت** » هى فى حقيقتها شكوى « **شيكسبير** » نفسه من متاعب الناس وآلام الحياة ، فالذى يشكو منه « **هاملت** » . . الأمير النبيل ، وولى عهد المملكة – أولى بأن يشكو منه « **شيكسبير** » . . الشاعر المقهور الذى قهرته ظروف العيش ، والممثل الحزين الذى عانى تقلبات الأيام :

اسمعه يقول فى مونولوج « **الكينونة** » الشهير ، (نكون أو لا نكون) تلك هى المشكلة ، فنحن لا ندرى أهو أنبل لنا وأكرم ، أن نتحمل الآلام من زمن قاس نصبر على بلائه وبلواه ، أم نهيب بأنفسنا إلى الثورة على ذلك الخصم الموار بالمتاعب والآلام ، فنستريح منها ؟ .

« وما الموت ؟ أهو نوم ولا زيادة » ؟

« لئن كان الموت نوماً يريحنا من أوجاع الفؤاد الأليم ، ومن ألف جرح وجرح يُصاب به هذا الجسد ، لهو إذن ختام تتمناه النفوس ، وتسعى إليه ! ولقد يكون الموت نوماً ، ويكون فى النوم حلماً يغشاه . . تلك هى المشكلة ، إذ من يدرى ما تلك الأحلام التى تطوف بالنائم فى ضجعة الموت ، بعد أن يخلع عن جسده رداء الحياة » . .

ونحن بمقدار ما نستطيع أن نصف « **هاملت** » بأنه « **أمير الأمراء** » . . نستطيع

كذلك أن نصف « **شيكسبير** » بأنه (**شاعر الشعراء**) ، فهو بحق شاعر الطبيعة ، وشاعر الحياة ، وشاعر الإنسان ، فهو لم يكن مجرد شاعر ، أو لم يكن شاعراً كأى شاعر ، بل كان عالماً بأسره ، تعددت فيه الجوانب والنواحى ، حتى إذا ما ذكرت « **شيكسبير** » ، نسيت كل ما فى العالم غير ما ترك « **شيكسبير** » .

نسيت كل شىء . . أجل . . كل شىء . . غير هذه التركة الخالدة من الشعر المسرحى الرفيع ، الذى يسمو فوق كل مراتب الشعر ، والذى يزداد سموًّا كلما عدت إليه مرة بعد أخرى ، لأنك ترى فيه دنيا بأكملها من البشر ، خلقها خيال اندمج فيه كل خيال ، وفن تلاشى أمامه كل فن . . إنه فن « **شيكسبير** » . . مرآة الطبيعة المجلوة ، وأشعر الشعراء ، بل شاعرهم على الإطلاق ، ومع هذا لم يكن « **شيكسبير** » ملكاً ، ولا كان غازياً . ولا حتى عظيماً فى وطنه ، كان مؤلف مسرحيات ، وكان مهرجاً ، كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة إلى نفس الجمهور ، ثم لا يناله فى أكثر الأحيان غير السخط والازدراء ، ومات « **شيكسبير** » . وانطوى دور المهرج ، ولكنه كان ككل نابغة ، وكان ككل عبقرى ، رجلا صاحب رسالة ، تؤذيه رسالته حتى الاحتراق ، ولكن من دخان هذا الاحتراق تتعطر الحياة ، ويزداد أريج الكون ، كلما ازدادت نار الحريق .

والعجيب أن هذا الرجل الذى كتب الأعاجيب ، لا نكاد نجد فى سيرته خبراً عجيباً كما يقول « **العقاد** » ، إلا إذا كان العجيب فى سيرة حياته أنه ولد حين ولد ، ومات حين مات .

فقد ولد فى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٥٦٤ ، ومات فى الثالثة والعشرين من ابريل عام ١٦١٦ ، وهو نفس اليوم الذى شهد مولده ، وكان له

من العمر اثنان وخمسون عاماً ، ودفن فى مسقط رأسه ، فى ذات القرية التى ولد فيها . . « **ستراتفورد أون آفون** » .

وكان قد أوصى قبيل وفاته أن تنقش على قبره هذه الأبيات :

قف يا صاحبى ، أستحلفك بالله
ألا تزيح عنى التراب
بارك الله فى رجل يصون هذه الصخور
ولعنة الله على من يزحزح رفاتى .

هذا هو « **شيكسبير** » الذى كتب من المسرحيات ما لا تعدله روعة وبراعة معاً ، والذى طالما أشاد بالمسرح وجمهور المسرح ، ولم يكن يخشى أحداً قدر ما كان يخشى جمهور المسرح ، يحرص على إمتاعه وإسعاده ، ويكاد ينحنى له ببطاقات الاعتذار ، وهذا هو الشاعر . . بل الشاعر العظيم ، اسمعه يقول لجمهور المسرح

(آه . . ليت لى ملهمة من نار تقودكم ، إلى سماء تلمع بومضات الخيال ، حيث الممثلون أمراء ، والمسرح مملكة ، والجمهور يتأمل هذا المشهد العظيم . سامحوا يا سادة عبقريتنا الكسول ، التى تجرؤ على أن تريكم هذا الشىء العظيم على هذه المنصة الفقيرة ، وهل يمكن أن تحتوى هذه الحلبة الضيقة على كل شىء . . كل شىء ؟) .

(هل يمكن أن تكدس فى هذه الدائرة الخشبية الخوذات التى أفزعت الماضى ، واقتحمت بوابة التاريخ ؟ أكملوا النقص بخيالكم ، ليصور الفرد الواقف على المسرح ألف فرد ، ولتروا فيه جيشاً بأكمله ، تخيلوا عندما نتحدث عن الخيل أنها هنا . . تدق الأرض بحوافرها فى اعتزاز . عليكم أنتم أن تزينوا ملوكنا فى خيالكم وأن تنقلوهم هنا وهناك . . متخطين مسافات عديدة ، ملخصين مآثر سنوات

مديدة ، فى بضع ساعات . . دعونى أقدم لكم حساب تاريخنا ، وتفضلوا علينا أيها المتفرجون الصابرون بأذن صاغية ، وحكم رحيم . .) .

هذا هو التواضع ، أو هذا هو « **شيكسبير** » فى تواضعه ، وأمام من ؟ . . أمام الجمهور ، « **وشيكسبير** » هذا هو من قيل فيه ما قيل ، يكفى ما قاله الشاعر الإنجليزى الكبير « **جون ملتون** » عنه عندما فكرت بلاده فى أن تقيم له تمثالا ، ألم يقل بالحرف الواحد :

« ما حاجة « **شيكسبير** » إلى أحجار فوق أحجار ، يقيمها الناس على مدى قرن كامل تؤوى إليها رفاته المجيد ؟ ما حاجته أن تدفن بقاياه المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل إلى عنان السماء ؟ يابن الذكرى العزيز ، ووارث المجد العظيم . . ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك ، وقد أقمت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى ؟) .

ألم يقل كذلك الشاعر الفرنسى الكبير « **فيكتور هوجو** » فى نفس المناسبة ، وبالحرف الواحد :

(تمثال « **لشيكسبير** » . . ولماذا ؟

« إن التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو **إنجلترا** كلها لخير له من كل تمثال ليس « **شيكسبير** » بحاجة إلى هرم وله مسرحياته . . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ ماذا يستطيع البرونز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : (**قصة الشتاء** . . **العاصفة** . . **زوجات وندسور المرحات** . . **يولوس قيصر** . . **وأى آثر أعظم من الملك لير** . . وأشد تجهماً من **تاجر البندقية** . .

وأبهر من **روميو وجولييت** ، وأبهى من **ريكاردوس الثالث** ، وأى بدر يلقى على هذا لبناء ضياءً أعجب من ضياء « **هاملت** » . . ذلك الأمير النبيل ! ! » .

تحية « **لشيكسبير** » . . وأخرى « **لهاملت** » . . وأخيرة لهذا المسرح الذى يحاول أن يقدم للجمهور . . هذا الشاعر وهذه المسرحية ؟ .